

المحاضرة الأولى فلسفة هيلينستية

السنة الثانية

16/3/2020

د. علي اسبر

الانتقال من الميتافيزيقا إلى الحكمة العملية والزهد

استطاع كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو أن يرتقي إلى مستوى الماهية، أي استطاعوا اختزال كثرة الظواهر في وجود حقيقي أصيل يقف وراءها وهذا ما أسس له بداية سقراط من جراء اهتمامه بالبحث عن التعريفات الأخلاقية الجامعة، وهذا فعله سقراط وأفلاطون وأرسطو في فلسفتهم عموماً بنزوعهم "نحو الماهيات في نظرية المعرفة، فهي إذن (أي فلسفتهم) معنية بالبحث في نظرية المعرفة بوجه عام؛ واتجهوا نحو وجود الماهيات بوصفه الوجود الحقيقي، فستكون إذن فلسفة مثالية وعلى الرغم من كل الاختلافات الجزئية التي نشهدها لدى هؤلاء الفلاسفة الثلاثة، فإنه من الواضح أنهم متفقون جميعاً في هذه الصفة، صفة المثالية: فأرسطو لا يقل مثالية عن أفلاطون لأن الوجود الحقيقي عنده هو أيضاً ليس وجود المادة، بل وجود الصورة وكل ما هنالك من خلاف بينه وبين أفلاطون في هذا الصدد هو أن أفلاطون جعل الصور مفارقة؛ أما أرسطو فقد جعل الصورة والهيولى توجدان معاً غير منفصلتين، بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول: "إنّ هذا يؤذن بأنّ أرسطو كان مثالياً مغالياً، لأنه لم يقل إن وجود الصورة يجب أن يكون ملازماً لوجود الهيولى إلا لأنه يريد أن يجعل الوجود الحقيقي دائماً هو وجود الصورة أو الماهيات. إذ سيكون كل وجود — في هذه الحالة — مرتبطاً بوجود الماهية، مما يضفي على الماهية قوة أعظم في الوجود"¹.

¹ - بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة، الجزء الثاني، مرجع سبق ذكره، مادة: الفلسفة اليونانية، فقرة: خصائص الفلسفة اليونانية في العصر الثاني. (ص: 189).

ولئن كان كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو عني بالوجود الماهوي بوصفه وجوداً حقيقياً، نلاحظ أيضاً أنهم توجَّهوا نحو الوعي الفلسفي نفسه فطرحوا السؤال عن جذور المعرفة، فسقراط أكد أن المعرفة الراسخة هي معرفة الماهية، وهذا ما نجده عند أفلاطون عندما أشار إلى أن العلم الحقيقي يقوم على تذكر المثل أي يقوم على أسس ثابتة راسخة، لكن أرسطو ذهب إلى أبعد من ذلك عندما قال: إن المعرفة الحقة هي المعرفة البرهانية، هذا إلى أنه بحث في مبادئ هذه المعرفة عينها، وحدد أصولها على أنها معطيات مطلقة يتم الوصول إليها عبر الحدس أي لا يمكن البرهان عليها. وهنا نجد تساؤلاً حقيقياً عن طبيعة المعرفة أو الأسس التي يقوم عليها الوعي الفلسفي من ناحية المعرفة.

هذا، إلى أنه يلاحظ وجود صلة واضحة بين نظرية الوجود والميتافيزيقا والأخلاق عند أفلاطون بشكل خاص، فهو يربط ربطاً ديكالكتيكياً بين الإنسان وعالم المثل وبشكل خاص مثال الخير عبر المرور بالعالم المحسوس. وكذلك نلاحظ أن أرسطو استخدم في بحثه حول الطبيعة وما وراء الطبيعة المفاهيم الأخلاقية والعاطفية عندما أكد على أن الكون الطبيعي أو الجوهر المحسوس وكذا الجواهر المفارقة يتشوقون إلى الله الذي هو الخير والعلة الغائية للعالم، لكن امتاز أرسطو بأنه مثل ذروة الوعي الفلسفي اليوناني، فهو وإن كان مثالياً إلا أن مثاليته جاءت كنتويج لنزعة علمية صارمة، فهو ينطلق من المنطق كأداة للعلم ومن ثم إلى العلم الطبيعي فالميتافيزيقي وهنا يكتمل العلم النظري ويليه العلم العملي المتمثل في الأخلاق والسياسة ثم تأتي الفنون. وهذا يدل على أن الوعي اليوناني الفلسفي قد بلغ مع سقراط وأفلاطون أرسطو ذروته القصوى، فشكل نسقاً معرفياً متكاملًا.

الحكمة العملية والزهد عند الأبيقوريين

لقد بلغ الوعي الفلسفي اليوناني مع أرسطو أوجه العظم، لكن بدلاً من أن يستمر هذا التطور ويكون بمثابة نور يزداد ضياءً، يلاحظ أن طبيعة الوعي الفلسفي اليوناني، بعد أرسطو، اتسمت بسمات مغايرة تماماً لتلك التي أسبغها أرسطو، على الفلسفة اليونانية. ومرد

ذلك إلى تحوُّل هذا الوعي عينه، من التفكير القائم على الاعتبارات العقلية البحت والانشغال بالمشكلات الأنطولوجية أو الميتافيزيقية الكبرى، إلى الانهمام بالمعايير الأخلاقية، وضبط السلوك الإنساني، والاتجاه نحو الزهد، وبكلمة، صار الوعي الفلسفي اليوناني وعياً عملياً. وهذا ما نجده، بشكل خاص، عند الأبيقوريين²، الذين نزعوا بالفلسفة نزعة عملية واضحة، "فأنكروا على الإنسان حق الاشتغال بالعلم من أجل العلم، لأنَّ العلم من أجل العلم لا يفيد شيئاً إذا لم يكن تحته عمل أو إذا لم يكن مؤدياً إلى السعادة عن طريق العمل والتطبيق"³.

و لم يكتف الأبيقوريون بذلك، بل بالإضافة إلى تقويضهم لجدوى العلوم إذا لم تكن غايتها عملية، فإنهم نظروا إلى الفلسفة النظرة ذاتها، "فما قد خلا من العمل، أو لم يؤد إليه، أو لم يكن مرتباً نحوه، فلا فائدة فيه للفيلسوف"⁴. وبناءً على هذه الرؤية ذهب أبيقورس زعيم المذهب إلى "أنَّ الفلسفة هي الحكمة العملية التي توفر السعادة بالأدلة والأفكار"⁵. وعليه، فإنَّ أبيقورس يرى إلى أنَّ "الفلسفة لا تتقلص في معرفة، ولا تتقلص في فعل إيمان عقيم"⁶.

ولما كانت الفلسفة حكمة عملية تستجلب السعادة، ولا يمكن أن تختزل، في أية معرفة مطلقة، أو قناعة دوغمائية، أو إيمان قاطع، فإنه لا بد أن يكون موضوع عناية الفيلسوف هو الأخلاق، لأنها الأساس الذي يجعل الوعي الفلسفي وعياً عملياً. ومن أجل إثبات هذا الرأي قسّم أبيقورس الفلسفة إلى العلم القانوني، والعلم الطبيعي، والأخلاق، التي هي ذروة الفلسفة الأبيقورية، فهي "محور الفلسفة وغايتها يخدمها العلم القانوني أي المنطق والعلم الطبيعي"

7

وفي العلم القانوني يرى أبيقورس أن الحس أصل المعرفة، ولكن الاختلاف المعرفي بين البشر حول الشيء الواحد ليس الحس نفسه، بل الشيء الذي يصدر صوراً مختلفة أي

² نسبة إلى الفيلسوف اليوناني أبيقورس (341-270 ق.م).

³ - بدوي، عبد الرحمن، خريف الفكر اليوناني، وكالة المطبوعات - الكويت؛ دار القلم- بيروت، الطبعة الخامسة، 1979، ص: 51.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 52.

⁵ - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص، 215.

⁶ - بويانسي، بيار، أبيقورس، تعريب: بشارة صارجي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، 1980، ص: 15.

⁷ - كرم، يوسف، تاريخ الفلسفة اليونانية، مرجع سبق ذكره، ص: 215.

الموضوع وليس الذات، لكن هذا التبرير "ليس من شأنه أن ينفي اللازم الأصلي، وهو اختلاف الناس بعضهم عن بعض، مع حق كل أن يؤمن بما قال به جسده"⁸. ويؤكد أبيقورس أنه بضم مجموعة من الإحساسات إلى بعضها البعض بواسطة التذكر يتكوّن التصور. ومن خلال ضم مجموعة من التصورات إلى بعضها البعض يتكوّن الحكم، والحكم في فلسفة أبيقورس يدعو "باسم الظن ولا يريد أن يتحدث عن اليقين المطلق، لأنّ هذه الأشياء لا تحتل اليقين، كما أنه ليس من المطلوب دائماً اليقين"⁹. ويترتب على هذا الكلام نتائج جدّ مهمة وهي أنه ما دامت المعرفة اليقينية المطلقة ممتنعة، والمعرفة في صميمها ظنية، فإنّ المعرفة من حيث هي كذلك تكبح الوعي الفلسفي في نزوعه المعرفي للوصول إلى الحقيقة، وتساوقاً مع قول أبيقورس بالمعرفة الحسية قال بالوجود الجسدي واصطنع مذهب ديموقريطس في الذرات، وعدّ أن الذرات تتحرك حركة حرة من أجل تكوين الأجسام عن طريق انحرافها لتتلاقى مع بعضها البعض. "ويمثل هذا الانحراف ضرباً من الحرية في نظام آلي خاص. وبه يفسّر أبيقورس وجود الحرّية في الإرادة الإنسانية، بعكس الرواقيين الذين أنكروا هذه الحرية"¹⁰. وهذا الضرب من الحرّية الذي أفضى إليه العلم الطبيعي يعد حلقة وصل بين العلم القانوني والطبيعة والأخلاق. ولما كانت غاية الفلسفة هي العمل الذي يتجلى في الأخلاق الإنسانية التي يتمثلها الإنسان متجهاً نحو تحقيق الخير لنفسه للوصول إلى السعادة، فإنّ هذا الفهم يؤول إلى أنّ " المهمة الأولى للعلم هي أن يكشف عن أسس السعادة الإنسانية. ومن الجلي الذي يوحى به شعور لا يقاوم أنّ السعادة إنما هي في اللذة"¹¹.

ويبدو أنّ أبيقورس قصر مهمة الوعي الفلسفي على تحقيق لذة معرفيّة ذاتيّة لا تتعدّى نطاق الحالة الإنسانية المفردة وفي هذا الوضع انطواء تام على الذات يهدف إلى سعادة سلبية تقوم على التحرر من ربة العالم.

⁸ - بدوي، خريف الفكر اليوناني، مرجع سابق، ص: 53.

⁹ - المرجع نفسه، ص: 54.

¹⁰ - بدوي، عبد الرحمن، موسوعة الفلسفة- ج1، مادة: الانحراف. (ص: 233).

¹¹ - ريفو، ألبير، الفلسفة اليونانية: أصولها وتطورها، مرجع سابق، ص: 193.

لأنَّ "جوهر السعادة هو الاتزان الكامل، السكينة، نبذ العالم. ويلاحظ ماركس في أطروحته للدكتوراه: "عند أبيقور لا يكمن للإنسان خير خارج ذاته؛ الخير الوحيد الذي لديه في علاقته بالعالم هو الفكرة السالبة، فكرة التحرر منه". ولكن لكي يتحرر المرء من العالم لا بد أن يتغلب على خوفه من الآلهة، وكذلك على خوفه من الموت"¹².

والحقيقة أنَّ أبيقورس استطاع أن يضيف إلى الوعي الفلسفي صفة يجب أن تكون أساسية فيه وهي الشجاعة، لأنَّ آراءه تتصف بشجاعة نادرة لم يسبقه إليها أي فيلسوف آخر. وهذه الشجاعة تتصف بصدق حقيقية وإخلاص عميق في التفكير.

¹² - أويزрман، ثيودور، تطور الفكر الفلسفي، مرجع سبق ذكره، ص: 23.